

الإشكال الواقعي في العمل التفسيري

دراسة ميدانية في تفسير القرطبي

بقلم الدكتور

زيد خليل محمد الدغامي (*)

الحمد لله ، والصلاة والسلام على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وعلى آله وصحبه ومن والاه ، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين ، وبعد :

فإن العمل التفسيري في المنهج النبوي كان قائماً على أحكام الصلة بين النص القرآني والحياة الواقعية ، لأن المفسر الأعظم محمد صلى الله عليه وسلم أراد بهذا أن يخط منهج تفسير القرآن والتعامل معه قراءة وفهماً ، ونعني بالقراءة ، القراءة الحضارية التي تمكن الأمة من أن تتفياً ظلال موقعها العالمي ، وتتبوا مكانتها الثلاثية بها بين الأمم . ونعني بالفهم : الفهم الحضاري الذي يطرح مفاهيم القرآن ومبادئه لتشغل المساحة الفكرية والعلمية العالمية ، لأن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم ، ويبشر المؤمنين ، كما يشهد قوله تعالى لذلك : ﴿ إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلتي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْراً كَبِيراً ﴾ (١) .

وعلى ضوء هذا يكون الدافع الأصيل لتفسير القرآن هو بيان هداية الله تعالى في كل مجالات الحياة الإنسانية ، وفي كل ميادينها العلمية والمعرفية والعملية . وحين ندرك حجم الضلال الذي تغرق فيه البشرية في أفكارها وقيمها وأخلاقها وسلوكها ونظام حياتها على مر العصور ، حين ذاك ندرك قيمة الهداية الربانية التي بعث بها الأنبياء عامة ، والهداية القرآنية - التي بعث بها خاتم النبيين خاصة - ودورها وأثرها وضرورتها ، ويكون دور المفسر ثمة الكشف عن هذه الهداية وبيانها بأوضح أسلوب وأيسر طريق ، وبذلك يأخذ التفسير الطابع العلمي الواقعي ، فيبقى وثيق الصلة بحياة الناس ، ومن ثم يكون القرآن حاضراً باستمرار : يرشد ويوجه ، يعدل ويصحح ، ويهدي للتي هي أقوم . إن منهج التعامل مع القرآن يأخذ بعين الرعاية والاهتمام وظيفة الإنسان كخليفة ، ودوره في القيام

* - قسم معارف الوحي والتراث - الجامعة الإسلامية العالمية - ماليزيا .

بهذه المهمة ، بل دوره فى قيادة الحياة البشرية وتوجيهها لتحقيق العبودية لله فى مجالات الحياة كلها ... هذا المنهج بدأت معالمه تدرس فى العمل التفسيري بعد عصر الخلافة الراشدة أو بعد عصر الصحابة بوجه عام ، وانفصال القيادة الفكرية « قيادة العلماء » عن القيادة السياسية « قيادة الخلفاء » . وبدأ كل يخط محساره بعيدا عن اتجاه الآخر فى أغلب الأحيان ، فقل تأثير العلماء فى توجيه الحياة الواقعية على ضوء القرآن الكريم وهدية . هذا الانفصال رافقه انفصال آخر هو أشد منه خطورة ، وأعظم منه أثرا ، وهو انفصال التفسير عن الواقع ، لينشغل بعد ذلك بترجمات معرفية مصدرها النقل والرواية ، وضروب من علوم اللغة والبلاغة والفلسفة والكلام والفقه ... فأضيفت هذه العلوم إلى العمل التفسيري فشكلت - فى كثير من الأحيان - معوقا فى فهم هداية القرآن الكريم ومقاصده وحجابه .

ونحن فى دراستنا لتفسير علم من أعلام التفسير وأئمتة ، وهو الإمام أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصارى القرطبى (سنة ٦٧١هـ) صاحب الموسوعة الضخمة فى التفسير المسماه الجامع لأحكام القرآن^(٢) تهدف إلى بيان وإبراز تلك الفجوة والهوة فى العمل التفسيري بوجه عام : ليقودنا ذلك إلى إصلاح منهج التعامل مع القرآن وتفسيره بوجه شمولي .

وسأعرض لهذا الأمر من خلال تتبع كل ما كتبه القرطبى فى تفسيره ، وأبين كيف كان القرطبى يتحدث عن واقع عصره ، وما هى الأسباب التى جعلت علمائنا يعتزلون الواقع نوعا ما ، هذه هى قضية البحث الأساسية . وستتجلى من خلال :

- بيان المقصود بالتفسير الواقعي .

- عرض موجز للأحداث التى عاصرها القرطبى .

- ذكر ما تضمنه تفسير القرطبى من إشارة إلى قضايا الواقع .

- تقييم موقف القرطبى من قضايا الواقع .

وأرجو أن يعلم أن تسمية البحث بهذا الاسم جاء بعد استعراض لهذه القضية فى تفسير القرطبى كله .

المقصود بالتفسير الواقعي :

لا أقصد بالتفسير الواقعي أو بربط التفسير بالواقع أن يذكر المفسر الأحداث التي زامنها ، والوقائع التي عاشتها الأمة في عصره ليتحول التفسير بذلك إلى كتاب أحداث تاريخية . ولا أقصد أن يبدى المفسر عبارات النقد والسخط التي تعبر عن عدم رضاه عن الأوضاع الجاهلية في عصره . ولا أقصد شكواه وأناته من تلك الأوضاع ، ولكنني أقصد به : البعد التحليلي للظواهر المرضية التي تعاني منها الأمة في حياتها ، والكشف عن علاج القرآن لها من خلال التفسير ، وبعبارة أخرى : كيف أثبت أن هداية القرآن تستوعب حاجات الزمان والمكان المتجددة في مختلف العصور ، وكيف أثبت أن هداية القرآن تضع حداً للانهيار الحضاري الذي عانت منه الأمة وتعاني في شتى مجالات حياتها .

هذا المنهج ليس بدعاً من القول ، وليس إسقاطاً على النهج التفسيري الذي سلكه مفسرون رحمهم الله ، بل هو منهج ينطلق من هدى القرآن ابتداءً ، وهو الذي هيمن على تفسير الرسول صلى الله عليه وسلم ، ورحم الله الإمام الشافعي ما أحكمه وما أعمق فهمه في قوله : كل ما حكم به رسول الله صلى الله عليه وسلم فهو مما فهمه من القرآن ^(٣) قال تعالى : ﴿ إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما أراك الله ولا تكن للخائنين خصيماً ﴾ ^(٤) .

فهو يكشف عن حقيقة المنهج العملي الذي سلكه الرسول صلى الله عليه وسلم في تفسير القرآن .

وكان هذا المنهج هو المهيمن على مسلك الصحابة - رضوان الله عليهم - في فهمهم للقرآن وتطبيقهم له ، أليس فعل أبي بكر الصديق بإعلان الحرب على المرتدين منهجاً واقعياً سليماً في فهم ظاهرة الردة وتحليل أبعادها السياسية والاجتماعية والدينية ، وتنزيل للنص القرآني على ذلك الواقع .

وفي منهج عمر رضي الله عنه أمثلة لا تحصى في فهم مقاصد القرآن الكريم وتنزيل أحكامه على الواقع العملي بعد إدراكه ذلك الواقع وتحليله على ضوء تلك المقاصد ، فعدم إقامته لحد السرقة ، ومنعه تقسيم سواد العراق ... كافية في الدلالة على ذلك المنهج الذي سلكه الصحابة في فهم القرآن وتفسيره إن على المستوى الفردي ، وإن على مستوى

الأمة. ثم ألم يكن أصحاب رسول الله البررة مصاحف تمشى على الأرض ؟ أليس فى فعلهم وسلوكهم ترجمة عملية للنص القرآنى ، ليوضحوا بذلك منهج التعامل مع القرآن فى مجال القراءة والفهم والتفسير .

ولزيد من البيان نورد بعض النصوص التى تدل على ضرورة ربط التفسير بالواقع الحياتى للفرد والأمة بأنه فى غاية الوضوح نقلاً ، ومنطقاً وعقلاً . فالتفسير لم يكن يدفع إليه إلا الحاجة التى هى فى حد ذاتها ترجمة عملية للنص القرآنى . وهل فرق القرآن بين الفهم والعمل أو طالب بأحدهما دون الآخر ؟ إن المنهج النبوى فى تعليم القرآن والحث على تعلمه يرشدك إلى منهج التعامل الصحيح مع القرآن ، وتشير نصوص كثيرة إلى ذلك :

منها : ما روى عن أبى عبد الرحمن السلمى ، قال : « كنا إذا تعلمنا عشر آيات من القرآن لم نتعلم العشر التى بعدها حتى نعرف حلالها وحرامها وأمرها ونهيها » وفى رواية أخرى عنه قوله : « إنما أخذنا القرآن عن قوم أخبرونا أنهم كانوا إذا تعلموا عشر آيات لم يجاوزوها إلى العشر الأخرى حتى يعلموا ما فيهن من العمل ، قال : فتعلمنا العلم والعمل جميعاً ^(٥) .

منها : قوله صلى الله عليه وسلم لحذيفة بن اليمان - رضى الله عنه - فى الحديث الذى كان يسأل فيه حذيفة عن الشر : « يا حذيفة تعلم كتاب الله واتبع ما فيه » ^(٦) .

ومنها : ما ذكره الإمام مالك بن أنس أنه بلغه أن عبد الله بن عمر - رضى الله عنهما - مكث على سورة البقرة ثمانى سنين يتعلمها ^(٧) ليتحصل على أى : يقيم حدودها أمراً ونهياً ، وإدراكاً وفقهاً ، فكانت منطلقاً له فى حركته الفكرية والعملية .

وقد كان بعضهم يخرج إلى سوق الكوفة لينظر إلى الإبل ^(٨) لأن الله تعالى يقول : ﴿ أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴾ ^(٩) ، ليتحصل على المعرفة من خلال المشاهدة ، وليقيم أمر الله تعالى بالنظر إليها ، فكل نظر - كهذا - يجلب لصاحبه فائدة ، تغذى إيمانه ، وتقوى يقينه ، وتزوده بمعرفة منبثقة من دراسة النص القرآنى دراسة عملية واعية .

ثم بدأ الطابع النظرى يغزو فهم القرآن لأسباب عدة ، من أهمها : انتشار الأفكار التى لا تنسجم مع روح العقيدة الإسلامية ، فتحول التفسير إلى معارك فكرية مذهبية بين

أهل السنة والمعتزلة والخوارج والشيعة وغيرها، إضافة إلى خلافتان النحويين والفقهاء... وتحول الأمر بعد ذلك ليكون الدافع لتفسير القرآن - عند كثير من المفسرين وينسب متفاوتة - هو المتعة الفكرية والشغف الثقافي بكثير من المعارف والفنون، ومن هنا بدأ التجاوز الصريح للواقع الحياتي للأمة، وقامت الفجوة بين تفسير القرآن الذي هو المحرك الحقيقي لحياتها وبين واقع هذه الأمة.

منهج الإمام القرطبي في التفسير:

فإذا ما انتقلنا إلى العلامة الفقيه المالكي أبي عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي الأندلسي وجدنا من خلال تفسيره الموسوعة « الجامع لأحكام القرآن، والمبين لما تضمن من السنة وآي الفرقان » إن ثقافته وعلمه بالأحكام قد تميز بها تفسيره وتلون، فجمع لنا تراثاً فقهياً عظيماً هو حصيلة فقهه من تقدمه من سلف هذه الأمة وناقش الكثير من الأحكام بنزاهة وموضوعية، واستقلالية في الرأي.

ولقد صدق د/ الذهبي في وصفه حيث قال: إن القرطبي رحمه الله في تفسيره هذا حر في بحثه، نزيه في نقده، عف في مناقشته وجدله، ملم بالتفسير من جميع نواحيه، بارع في كل فن استطرد إليه وتكلم فيه (١٠).

إلا أنه - مع هذا - قل اهتمامه بفقه الواقع، الفقه الذي يعالج به قضايا الواقع وهمومه من خلال تفسيره لكتاب الله. وإذا كان المفسر الذي يكشف عن هداية القرآن لم يعجز بواقع عصره، فمن الذي سيعنى به، وكيف يصل الناس إلى هذه الهداية؟ إن أكبر عجز نواجهه حديثاً هو: دعوتنا إلى تحكيم الإسلام في نظم الحياة مع عدم قدرتنا على تقديم الهداية القرآنية في هذه النظم، وعدم قدرتنا على فهم الواقع وتحليل أبعاده وتوصيف العلاج القرآني لكل الظواهر المرضية في المجتمع البشري، وعلى سبيل المثال، أننا ننادي بتحريم الربا دون أن نقدم بديلاً عملياً واقعياً شمولياً لأزمة الاقتصاد على ضوء الهداية القرآنية! بل الأمر أشد من ذلك حين نكون عاجزين عن فهم الواقع الاقتصادي الربوي ومن ثم عاجزين عن اختراقه وإثبات فشله. إن الذي يراود من خلال التفسير الواقعي هو فهم الواقع من جميع أبعاده مع القدرة على التعامل معه، لا وصف الواقع والشكوى منه بالاسترجاع والحوالة.

واقع القرطبي :

لنرجع إلى القرطبي ونذكر - بإيجاز شديد - أهم الأحداث التي وقعت في عصره في البلاد الإسلامية، ثم نلقى الضوء على تفسيره لنبحث عن حجم محاكاته لذلك الواقع .

لقد رحل القرطبي إلى المشرق وكانت الأندلس تواجه أحداثاً جساماً، وحملات صليبية مجرمة ، ووضعاً سياسياً مؤلماً ، وتفرقاً في صفوف الأمة جعلها فريسة سهلة للطامعين ... وكثرت الخيانات من المتسلطين على مقاليد الحكم والسياسة من أبناء العشائر والقبائل ، كل هذه الأحداث زامنوا الإمام القرطبي ، ففي سنة ٦٠٩ هـ ، استولى الإفرنج على أكثر الأندلس بعد وقعة العقاب وهي الوقعة الطامة على الأندلس بل المغرب جميعاً، وما ذاك إلا لسوء تدبير أحد القادة وهو محمد الناصر ؛ فإنه استخف برجال الأندلس العارفين بالقتال ، فشنى بعضهم ، ففسدت النيات ، ولم تقم بعدها للمسلمين قائمة محمد (١١) .

وفي سنة ٦٢٧ هـ سقطت الجزائر الشرقية في الأندلس، وأكبرها جزيرة ميورقة ... وفي يرم الأحد الثالث والعشرين من شوال سنة ٦٣٦ هـ سقطت المدينة العملاقة قرطبة ... وسقطت بلنسية إحدى المجاهدة ، وكبرى المدن قواعد شرقي الأندلس ، وتلا سقوطها سقوط عدد من المدن القريبة، مدينة تتلوها مدينة ، وأجلى المسلمون عن هذه المدن ، قال المقرئ : ولم يزل أهل الأندلس بعد ظهور النصاري على كثير منها يستنهضون عزائم الملوك والسوقة لأخذ الثأر بالنظم وبالنثار ، فلم ينفعهم ذلك حتى اتسع الخرق ، وأعضل الداء أهل الغرب والشرق ... وفي سنة ٦٤٦ هـ سقطت المدينة العظمى إشبيلية (١٢) وتجرع أهلها كثيراً من الأذى ، ونالهم الأسى ، أشد منه وأدمى رحيلهم عنها وقلوبهم حزني ، يجلبهم النكد، ويفريهم فراق البلد ، غادرها من أهلها ما يقدر بأربعمائة ألف قصدوا مدن الأندلس أو العدو الأخرى ... لقد جرعوا أهلها كأس الحمام ، من كثرة المجاعة وعدم الطعام، فكل منهم في بحر المنايا غاص وعام ، مما حل بهم من الأوجال والآلام ، فسلموا لهم في المدينة وخرج منها الخاص من أهلها والعام (١٣) .

وجاء في وصف حال الأندلس على لسان بعض العلماء: لقد طرقت الدهياء ذلك القطر الذي ليس له في الحسن مثال ، ونسل إليه الخطب من كل حذب وائتال ، وكل ذلك من اختلاف رؤسائه وكبرائه ، ومقدميه وقضاته وأمرائه ووزرائه ، فكل يروم الرياسة لنفسه

ويجر ناراها لقرصه ، والنصارى يضربون بينهم بالخداع والمكر والكيد ، ويضربون عمراً بيزيد ، حتى تمكنوا من أخذ البلاد ، والاستيلاء على الطارف والتلاد (١٤) .

وزامن القرطبي - رحمه الله - الأحداث المأساوية في بلاد المشرق التي لم تكن تختلف عن الأحداث في بلاد المغرب والأندلس ، فالمرض واحد وأعراضه واحدة ، وفي ظل غياب مبدأ الشورى الإسلامي ، وذهاب هيبة العلماء ، وتسلب القائمين على الحكم ضاعت البلاد ، وطمع فيها الأعداء حين رأوا الخلاف بين هؤلاء الحكام إلى الحد الذي يقاتل بعضهم بعضاً ، ويتحالفوا ضد بعضهم البعض طمعاً في الملك ، بل تحالفوا مع الفرنجية وغيرهم من أجل هذا الهدف ، كما فعل الملك عمر بن العادل الذي حث هولاء الكرو التتري إلى القدوم إلى الشام ثانية بعد هزيمته (١٥) .

وظهر في هذا العصر جنكيز خان ، وأعمل سيفه في لحوم المسلمين في حوادث كثيرة ، أشار ابن كثير إلى إحداها فقال مشيراً إلى كثرة ما أحدثه من قتل : لعل الخلق لا يرون مثل هذه الحوادث ... إلى أن ينقرض العالم وتفتنى الدنيا إلا بأجوج ومأجوج (١٦) .

واستمر الحال في المشرق الإسلامي ما بين غارات التتار المتكررة والمؤذية على المشرق الإسلامي ، وما بين غارات الصليبيين واحتلالهم لبلاد كثيرة في مصر والشام وخاصة بيت المقدس حيث عاثوا فيها الفساد ... وفي سنة ٦٥٦ هـ سقطت عاصمة الخلافة الإسلامية ببغداد على يد التتار ، وقتلوا فيها - على قول - ألفي ألف نفس (١٧) .

أقول : لقد تتبعنا تفسير القرطبي كله ؛ لأنه ليس هناك مظان يمكن الرجوع إليها للتعرف على تحليل قضايا الواقع ، ولأنها لم تكن من منهج القرطبي رحمه الله .

ويمكن تصنيف هذه القضايا في خمسة موضوعات ، هي : موضوع الجهاد ، وموضوع الصوفية والتصوف ، وموضوع فساد الحكام ، وموضوع فساد العلماء والعامة ، وأحوال العصر ، والموضوع الأخير متفرقات ذكرها القرطبي فيما يتصل بذلك الواقع ، إليك بيانها :

أولاً : الجهاد في سبيل الله تعالى :

وهو من الموضوعات الأساسية المهمة التي كانت تشغل عصر القرطبي في العالم الإسلامي كله ، وليس في الأندلس فحسب ، والقرطبي ينبغي أن يدخل هذا المعترك كمفكر

إسلامي ، ومفسر عظيم ؛ ليبليغ هداية الله للناس ، فالمفسر هو أولى من يقوم به ، ولنستمع إلى حديث القرطبي في هذا الموضوع : عند تفسيره لقوله تعالى : ﴿ كتبت عليكم القتال وهو كره لكم ﴾ ^(١٨) نقل تفسير أبي عبيدة للآية ، وهو : « عسى أن تكرهوا ما في الجهاد من المشقة وهو خير لكم في أنكم تغلبون وتظفرون وتغنمون وتؤجرون ، ومن مات شهيداً ، وعسى أن تحبوا الدعة وترك القتال وهو شر لكم في أنكم تغلبون وتذلون ويذهب أمركم . قلت : القول للقرطبي :

وهذا صحيح لا غبار عليه ؛ كما اتفق في بلاد الأندلس وتركوا الجهاد وجنوا عن القتال وأكثروا من الفرار ؛ فاستولى العدو على البلاد ، وأى بلاد ؟ وأسر وقتل وسبى واسترق ، فإن لله وإنا إليه راجعون ذلك بما قدمت أيدينا وكسبته ^(١٩) ، واكتفى بهذا التعليق في مثل هذه الآية التي بين ما تضمنته من أحكام في ثلاث مسائل في صفحتين ، بينما فسر آية ﴿ ويسألونك عن الخيض ﴾ ^(٢٠) التي بعدها في أربع عشرة مسألة في اثنتي عشرة صفحة .

وعند تفسير قوله تعالى : ﴿ قال الذين يظنون أنهم ملاقوا الله كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله والله مع الصابرين ﴾ ^(٢١) ذكر أن في قولهم هذا تحريض على القتال واستشعار للصبر وإقتداء بمن صدق ربه ، قلت والقول للقرطبي - هكذا يجب علينا أن نفعل . ولكن الأعمال القبيحة والنيات الفاسدة منعت من ذلك ، حتى ينكسر العدد الكبير منا أمام اليسير من العدو كما شاهدناه غير مرة ، وذلك بما كسبت أيدينا . ثم يبين القرطبي أسباب النصر فيقول : في البخاري ، وقال أبو الدرداء ، إنما تقاتلون بأعمالكم ، وفيه مسند أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « أهل ترزقون وتنصرون إلا بضعفائكم » فالأعمال فاسدة ، والضعفاء مهملون ، والصبر قليل ، والاعتماد ضعيف ، والتقوى زائلة ، قال الله تعالى : ﴿ اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله ﴾ ، وقال : ﴿ وعلى الله فتوكلوا ﴾ ، وقال : ﴿ إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون ﴾ ، وقال : ﴿ ولننصرن الله من ينصره ﴾ ، وقال : ﴿ إذا لقيتم فئة فاثبتوا واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون ﴾ ، فهذه أسباب النصر وشروطه وهي معدومة عندنا غير موجودة فينا ، فإننا لله وإنا إليه راجعون على ما أصابنا وحل بنا ، بل لم يبق من الإسلام إلا ذكره ، ولا من الدين إلا رسمه ، لظهور الفساد

ولكثرة الطغيان ، وقلة الرشاد حتى استولى العدو شرقا وغربا ويرا وبحرا ، وعمت الفتن ، وعظمت المحن ، ولا عاصم إلا من رحم (٢٢) .

وعند تفسير قوله تعالى : ﴿ من ذا الذي يقرض الله قرضا حسنا فيضاعفه له أضعافا كثيرة والله يقبض ويبسط وإليه ترجعون ﴾ (٢٣) روى حديثا سمعه من شيخه بقرطبة ، فحين ذكر قرطبة قال : « أعادها الله » (٢٤) فإذا كان هذا هو تعليق العالم المفسر ، فما عسى أن يكون تعليق عامة الناس ؟

وعند تفسير قوله تعالى : ﴿ ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتا بل أحياء عند ربهم يرزقون ﴾ (٢٥) .

ذكر في المسألة الخامسة : أن العدو إذا صبح قوما في منزلهم ولم يعلموا به فقتل منهم فهل يكون حكمه حكم قتيل المعترك ، أو سائر الموتى ؟ وهذه المسألة نزلت عندنا بقرطبة أعادها الله ، أغار العدو - قصمه الله - صبيحة الثالث من رمضان المعظم سنة سبع وعشرين وست مائة والناس في أجرانهم على غفلة ، فقتل وأسر ، وكان من جملة من قتل والذي رحمه الله : فسألت شيخنا المرقى الأستاذ أبا جعفر أحمد المعروف بأبي حجة فقال : غسله وصل عليه ، فإن أباك لم يقتل في المعترك بين الصفيين . ثم سألت شيخنا ربيع بن عبد الرحمن بن أحمد بن ربيع بن أبي ، فقال : إن حكمه حكم القتلى في المعترك . ثم سألت قاضي الجماعة أبا الحسن علي بن قطرال وحوله جماعة من الفقهاء ، فقالوا : غسله وكفنه وصل عليه ؛ ففعلت . ثم بعد ذلك وقفت على المسألة في « التبصرة » لأبي الحسن اللخمي وغيرها ، ولو كان ذلك قبل ذلك ما غسلته ، وكنت دفنته بدمه في ثيابه (٢٦) وقد أشغلت هذه القضية الجزئية الإمام القرطبي - رحمه الله - حتى سأل عنها ثلاثة من الشيوخ الأعلام . وعند تفسيره لقوله تعالى ﴿ وإن استنصروكم في الدين فعليكم النصر إلا على قوم بينكم وبينهم ميثاق والله بما تعملون بصير ﴾ (٢٧) .

ذكر عن ابن العربي : إلا أن يكونوا أسراء مستضعفين فإن الولاية معهم قائمة ، والنصرة لهم واجبة ، حتى لا تبقى منا عين تطرف حتى تخرج استنقاذهم إن كان عدونا يحتمل ذلك ، أو نبذل جميع أموالنا في استخراجهم حتى لا يبقى لأحد درهم . كذلك قال مالك وجميع العلماء ؛ فإننا لله وإنا إليه راجعون على ما حل بالخلق في تركهم

إخوانهم فى أسر العدو وبأيديهم خزائن الأموال ، وفضل الأحوال والقدرة والعدد ، والقوة والجلد ^(٢٨) وهذا الاسترجاع والوصف لأحوال العصر من كلام ابن العربى المتوفى سنة ٥٤٣هـ ^(٢٩) وكان مثل هذا الوصف يحتاج إلى نقل لاسيما وأن الأوضاع فى زمن القرطبى كانت أسوأ بكثير مما كانت عليه فى زمن ابن العربى رحمهما الله تعالى .

وعند تفسير قوله تعالى ﴿ انفروا خفافاً وثقالاً وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم فى سبيل الله ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون ﴾ ^(٣٠) تابع ابن العربى أيضاً فى قوله : ولقد نزل بنا العدو - قصمه الله - سنة سبع وعشرين وخمسماية فجاس ديارنا ، وأسر خيرتنا ، وتوسط بلادنا فى عدد هال الناس عدده ، وكان كثيراً وإن لم يبلغ ما حدوده . فقلت للوالى والمولى عليه : هذا عدو الله قد حصل فى الشرك والشبكة ، فلتكن عندكم بركة ، ولتظهر منكم إلى نصرة الدين المتعينة عليكم حركة ، فليخرج إليه جميع الناس حتى لا يبقى منهم أحد فى جميع الأقطار فيحاط به ، فإنه هالك لا محالة أن يسركم الله له ، فغلبت الذنوب ورجفت القلوب بالمعاصى ، وصار كل أحد من الناس ثعلباً يأوى إلى وجاره ، وأن رأى المكيدة بجاره ، فإنا لله وإنا إليه راجعون ، وهو حسبنا ونعم الوكيل ^(٣١) .

وقال المقرئ معلقاً : ولا خفاء أن هذا قبل أخذ العدو شرق الأندلس وسرقسطة وميورقة وغيرها ، والبدايات عنوان على النهايات ^(٣٢) .

لقد استشرى المرض فى القلوب وتغلغل فكيف يعالج ؟ وكيف تقوى هذه النفوس على مقاتلة العدو والوقوف فى وجهه ؟ وإذا كانت أوضاع الأمة بهذه الحال فإن الكشف عن سبب دانها وسر ذوائها يكون هو الواقعية فى التفسير ، وليس الاقتصار على وصف الواقع .

وفى عرض تفسير قوله تعالى ﴿ قالوا يا أبانا إنا ذهبنا نستبق وتركنا يوسف عند متاعنا فأكله الذئب وما أنت بمؤمن لنا ولو كنا صادقين ﴾ ^(٣٣) تحدث القرطبى عن سباق الخيل ، وقال ملمحاً : والخيل التى يجب أن تضرر ويسابق عليها ، وتقام هذه السنة فيها الخيل المعدة لجهاد العدو لا لقتال المسلمين فى الفسق ^(٣٤) والأمر أعظم من مجرد التلميح ، وأدهى من أن يعالج بالإشارة !

وعند تفسير قوله تعالى : ﴿ وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا ﴾ (٣٥) ذكر في المعنى الثالث لهذه الجملة أن الله سبحانه لا يجعل للكافرين على المؤمنين سبيلاً منه ، إلا أن يتواصوا بالباطل ولا يتناهاوا عن المنكر ، ويتقاعدوا عن التوبة فيكون تسليط العدو من قبلهم ، كما قال تعالى ﴿ وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ويعفو عن كثير ﴾ (٣٦) .

قال ابن العربي : هذا نفيس جداً . قلت - والقول للقرطبي - : ويدل عليه قوله عليه السلام في حديث ثريان « حتى يكون بعضهم يهلك بعضاً ، وسبى بعضهم بعضاً » ، وذلك أن « حتى » غاية ، فيقتضى ظاهر الكلام أنه لا يسلط عليهم عدوهم فيستبيحهم إلا إذا كان منهم إهلاك بعضهم لبعض ، وسبى بعضهم لبعض ، وقد وجد ذلك في هذه الزمان بالفتن الواقعة بين المسلمين ، فغلظت شوكة الكافرين ، واستولوا على بلاد المسلمين وانتهكواهم (٣٧) ، فإن كان الإسلام لم يبق إلا أقله فما هو واجب العلماء كفة ، والمفسرين على وجه الخصوص !!

وعند تفسير قوله تعالى : ﴿ والأنعام خلقها لكم فيها دفاء ومنافع ومنها تأكلون ﴾ (٣٨) نقل كلاماً عن ابن العربي تضمن ذكر بيت المقدس ، فأضاف القرطبي إليه عبارة « طهره الله » (٣٩) فيكون بذلك متحدثاً عن واقع عصره على رأى بعضهم .

ولزيد من التوضيح أقول : كان بيت المقدس في أيدي المسلمين منذ الفتح العمري له حتى سنة اثنتين وتسعين وأربعمائة ، وفي تلك السنة وقع في أسر الصليبيين حتى حرره صلاح الدين الأيوبي سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة ، فبقى في أيدي المسلمين حتى سلموه إلى الإفرنج سنة ست وعشرين وستمائة ، ثم حرره مرة أخرى الملك الناصر داود سنة سبع وثلاثين وستمائة ، ثم عاد وسلم إلى الإفرنج سنة إحدى وأربعين وستمائة ، ثم فتح على يد الملك الصالح نجم الدين أيوب سنة اثنتين وأربعين وستمائة (٤٠) .

وعند تفسير قوله تعالى ﴿ وإذا قرأت القرآن جعلنا بينك وبين الذين لا يؤمنون بالآخرة حجاباً مستوراً ﴾ (٤١) ذكر القرطبي رحمه الله روايات تذكر كيف عميت امرأة أبي لهب عن رؤية الرسول صلى الله عليه وسلم .

ثم قال : ولقد أتفق لي ببلاذنا الأندلس بحصن منشور من أعمال قرطبة مثل هذا ، وذلك أنني هربت أمام العدو انحزت إلى ناحية أخرى ، فلم أثبت أن خرج في طلبى فارسان

وأنا في فضاء من الأرض قاعد ليس يسترنى عنهما شيء ، وأنا أقرأ أول سورة يس وغير ذلك من القرآن ، فعبرا على ثم رجعا من حيث جاء ، وأحدهما يقول للآخر : هذا ديبله ، يعنون شيطانا ، وأعمى الله عز وجل أبصارهم فلم يروني ، والحمد لله حمدا كثيرا على ذلك ^(٤٢) وهذه كرامة له رحمه الله فقد كان تقيا صالحا ، نحسبه كذلك ولا نزكى على الله أحدا ، ومشاركته في الجهاد قدوة عملية للناس ، وحديثنا لا يمس شخصية القرطبي رحمه الله ، بل يتعلق بربط التفسير بقضايا الواقع وتحدياته وإشكالاته ربطاً منهجيا ، لتظهر هداية القرآن من خلال معالجة التفسير لتلك القضايا والتحديات التي يواجهها عصر المفسر ، أي مفسر .

ثانيا : الصوفية والتصوف :

لقد غلب على القرطبي رحمه الله روح التصوف ، فعاش زاهدا ورعاً ، ومع هذا كان شديد النقد والرفض لبدع الصوفية وتعاليمها . فعند تفسير قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴾ ^(٤٣) تحدث عن النهي عن السجود للبشر ، وقال : وهذا السجود المنهى عنه قد اتخذ جهال المتصوفة عادة في سماعهم وعند دخولهم على مشايخهم واستغفارهم ، فيرى الواحد منهم إذا أخذه الحال يزعمه يسجد للأقدام لجهله سواء أكان للقبلة أم غيرها جهالة منه ، ضل سعيهم وخاب عملهم ^(٤٤) وتحدث عن ذلك أيضا عند تفسير قوله تعالى : ﴿ وَرَفَعَ أَبُوبِهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا ﴾ ^(٤٥) فقال : وأجمع المفسرون أن ذلك السجود على أى وجه كان فإنما كان تحية لا عبادة ... قلت - والقول للقرطبي - هذا الانحناء والتكفى الذى نسخ عنا صار عادة بالديار المصرية وعند العجم ، وكذلك قيام بعضهم البعض ، حتى إن أحدهم إذا لم يقم له وجد فى نفسه كأنه لا يؤبه به ، وأنه لا قدر له ، وكذلك إذا التقوا انحنى بعضهم لبعض ، عادة مستمرة ، ووراثية مستقرة لاسيما عند التقاء الأمراء والرؤساء ، نكبوا عن السنن وأعرضوا عن السنن ^(٤٦) وهو نقد لاذع من القرطبي لأولئك القوم ، لكن نقد الصوفية قد سبق إليه الإمام ابن الجوزي فى كتابه « تلبيس إبليس » على صورة أقذع مما ذكر القرطبي رحمه الله ، وهو مع هذا يبقى مجرد نقد .

تحدث إن الخشوع عند تفسير قوله تعالى : ﴿ وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ ﴾ ^(٤٧) وذكر أن السلف كانوا يجتهدون فى ستر ما يظهر من

ذلك ، وأما المذموم فتكلفه والتباكي ومطأطأة الرأس كما يفعله الجهال ليروا بعين البر والإجلال ، وذلك من خدع الشيطان ، وتسويل من نفس الإنسان ^(٤٨) ولعله من فعل المتصوفة كذلك .

وعند تفسير قوله تعالى : ﴿ وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَنْ نَدْعُو مِنْ دُونِهِ إِلَهًا لَقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا ﴾ ^(٤٩) ، ذكر عن ابن عطية أن الصوفية تعلقت بهذه الآية في القيام والقول ، وقال وهذا تعلق غير صحيح ، هؤلاء قاموا فذكروا الله على هدايته ، وشكروا لما أولاهم من نعمه ونعمته ، ثم هاموا على وجوههم منقطععين إلى ربهم خائفين من قومهم ، وهذه سنة الله في الرسل والأنبياء والفضلاء والأولياء ، أين هذا من ضرب الأرض بالأقدام ، والرقص بالأكمام ، وخاصة في هذه الأزمان عند سماع الأصوات الحسان من المرد والنسوان ، هيهات بينهما والله ما بين الأرض والسماء ^(٥٠) .

وفيما يتصل بالموضوع نفسه يتحدث القرطبي عن الغناء المحرم ، كالأشعار التي توصف فيها الصور المستحسنات والخمر وغير ذلك مما يحرك الطباع ويخرجها عن الاعتدال ، أو يثير كامنا من حب اللهو ... لاسيما إذا اقترن بذلك شابات وطارات مثل ما يفعل اليوم في هذه الأزمان ^(٥١) وذكر أيضا ما ابتدعته الصوفية اليوم من الإدمان على سماع المغاني بالآلات المطربة من الشبابات والطار والمعاظ والأوتار فحرام ^(٥٢) .

ويظل القرطبي يهاجم بدع الصوفية وعاداتها في كل تفسيره ، ويصفهم بأنهم جهلة أغمار ، وأنهم جهال متزاهدة ، وأن مذهب الصوفية بطالة وجهالة وضلالة ^(٥٣) لكن ينبغي أن يفهم من هذا أمران : أولهما : أن القرطبي ليس إلا ضد بدع التصوف وجهالاته وضلالاته ، لا ضد روح التصوف وحقيقته ، وقد كان يستشهد بعبارات الصوفية وأقوالهم وأشعارهم إعجابا منه بها وتقديرا منه لها ^(٥٤) والثاني : ليس القرطبي أول من ينتقد التصوف والمتصوفة ، ولم تكن هذه القضايا جديدة على عصره ، وهو في النهاية نقد وتسفيه لهم .

ثالثا : فساد الحكماء :

تطرق القرطبي رحمه الله في ثنايا تفسيره إلى الحديث عن بعض أوصاف حكماء عصره بإيجاز شديد ، وقد كان حديثه ينم عن سخط وغضب عليهم لما أحدثوا ويحدثون من

مفساد وشور، فعند تفسير قوله تعالى ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا بطانة من دونكم لا يألونكم خيالا ودوا ما عنتم قد بدت البغضاء من أفواههم وما تخفى صدورهم أكبر قد بينا لكم الآيات إن كنتم تعقلون ﴾ ^(٥٥) ، تحدث عن أن الله نهى عن اتخاذ الكفار واليهود وأهل الأهواء دخلاء وولجاء ... وأن عمر نهى عن استكتاب أهل الكتاب ولأنهم يستحلون الرشا ، وأنه لا يجوز استكتاب أهل الذمة ، ثم قال رحمه الله : « وقد انقلبت الأحوال في هذه الأزمان باتخاذ أهل الكتاب كتبة وأمناء ، وتسودوا بذلك عند الجهلة الأغبياء من الولاة والأمراء » ^(٥٦) ، وهو تعليق ساخط على أولئك الأمراء ، وهو نتيجة حتمية لانفصال القيادة الفكرية عن القيادة السياسية ، واعتزال القيادة الفكرية دنيا الحكام . ولذلك فإن القرطبي لا يجيز الدعاء لهؤلاء الحكام على المنابر أيام الجمع ، ويعتبر ذكرهم من قبيل ذكر الشيطان ، فعند تفسيره لقوله تعالى :

﴿ يا أيها الذين آمنوا إذا نودى للصلاة من يوم الجمعة فاسعوا إلى ذكر الله وذروا البيع ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون ﴾ ^(٥٧) بين القرطبي بعد تفسير الآية أن ما كان من ذكر رسول الله صلى عليه وسلم والثناء عليه ، وعلى خلفائه الراشدين ، وأتقياء المؤمنين والموعظة والتذكير فهو في حكم ذكر الله . فأما ما عدا ذلك من ذكر الظلمة وألقابهم والثناء عليهم والدعاء لهم ، وهم أحقاء بعكس ذلك فهو من ذكر الشيطان ^(٥٨) .

بل يصرح بما هو أشد من ذلك ، فيقول : إن ولاية زماننا لا تجوز طاعتهم ولا معاونتهم ولا تعظيمهم ، ويجب الفوز معهم إذا غزوا ، والحكم من قبلهم ، وتولية الإمامة والحسبة ، وإقامة ذلك على وجه الشريعة . وإن صلوا بنا وكانوا فسقة من جهة المعاصي جازت الصلاة معهم . وإن كانوا مبتدعة لم تجز الصلاة معهم إلا أن يخافوا ، فيصلى معهم نفية ، ونعاد الصلاة ^(٥٩) ، ثم يذهب القرطبي رحمه الله ليقول : إن أكثر العلماء على أن العسر على طاعة الإمام الجائر أولى من الخروج عليه ... أما الخروج فهو مذهب طائفة من المعتزلة وهو مذهب الخوارج فاعلمه ^(٦٠) .

لا يبدو لي أن هناك معالجة منهجية لهذه القضية ، لأن القضية ينبغي أن تعالج في إطار واقع القرطبي ، لتكون الفتوى بذلك فتوى واقعية ، متبقة من فقه واقعي ، لكن هذه

القضية في فقهاء الإسلام عولجت من خلفية تاريخية لازالت تلقي بظلالها على العصور اللاحقة، وعلى هذا لا ينبغي أن يتحول فقهاء إلى فقه تاريخي . ولا بد من السعي نحو فقه أصيل معاصر واقعي . تحدث القرطبي عن بعض أحوال عصره حديث الساخط المتألم لفساد أحوال الناس وشيوع الظلم ، وكثرة الفتن ... فقد تحدث عن الرشوة عند تفسير قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقًا مِنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ ^(٦١) وذكر أن مما قيل في معناها : لا تصنعوا بأموالكم الحكام وترشوهم ليقضوا لكم على أكثر منها ، قال ابن عطية : وهذا القول يترجح لأن الحكام مظنة الرشاء إلا من عصم وهو الأقل ... قلت - والقول للقرطبي - : فالحكام اليوم عين الرشا لا مظنته ، ولا حول ولا قوة إلا بالله ^(٦٢) .

وأشار ملمحا إلى أثر الظلم وضرره على العمران والحياة كلها ، فعند تفسير قوله تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا وَاللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقَّبَ لِحُكْمِهِ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴾ ^(٦٣) .

ذكر قولاً يبين كيفية نقص الأرض من أطرافها ، فقال : قيل : نقصها بجور ولائها ، وقال معلقاً : وهذا صحيح معنى ، فإن الجور والظلم يخرب البلاد ، يقتل أهلها وإجلاتهم عنها ، وترفع البركة من الأرض ، والله أعلم ^(٦٤) .

وأشار إلى أن شأن كثير من الظلمة ودأبهم أنهم مع ظلمهم يستطيّلون بألسنتهم ، وينالون من عرض مظلومهم ما حرم عليهم ^(٦٥) .

وبين مدى المشقة التي لحقت بالناس من جراء ما أحدثته الظلمة في عصره ، فعند تفسير قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا بَطِشْتُمْ بَطِشْتُمْ جَبَارِينَ ﴾ ^(٦٦) ، ذكر أن الآية نزلت خيراً عن تقدم من الأمم ، وعظاً من الله عز وجل لنا في مجانية ذلك الفعل الذي ذمهم به ، وأنكره عليهم . ثم قال معلقاً : وهذه الأوصاف المذمومة قد صارت عادة لا سيما بالديار المصرية منذ وليتها البحرية - المماليك - فيبطشون بالناس بالسوط والعصا في غير حق ، وذكر أن الرسول صلى الله عليه وسلم قد أخبر عن هذا الوضع ، فقال : صنفان من أهل النار لم أرهما ، قوم معهم سياط كأذناب البقر يضربون بها الناس ... الحديث ، رواه مسلم ^(٦٧) .

رابعاً : فساد العلماء والعامة وأحوال العصر :

يشير القرطبي رحمة الله - إلى فساد العلماء في عصره إشارة الناقد الساخط ويصف الحال الذي وصل إليه العلماء في عصرة من يؤس ، فعند تفسيره قوله تعالى : ﴿ قالوا سبحانك لا علم لنا لا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم ﴾ (٦٨) وذكر أن من سئل عن علم أن يقول أن لم يكن يعلم « لا أعلم ولا أدري » ، وذكر أن هذا هو شأن الصحابة والتابعين وفقهاء المسلمين ، وإنما يحمل على ترك ذلك الرياسة وعدم الإنصاف في العلم ، ونقل عن مالك قوله : ما في زماننا شيء أقل من الإنصاف . وأضاف القرطبي معلقاً : هذا في زمان مالك ، فكيف بزماننا اليوم الذي عم فينا الفساد ، وكثر فيه الطغاة ، وطلب فيه العلم للرياسة لا للدراية ، بل للظهور في الدنيا وغلبة الأقران بالمراء والجدال الذي يقسى القلب ويورث الضغن ، وذلك مما يحمل على عدم التقوى ، وترك الخوف من الله تعالى (٦٩) .

ولا شك أن فساد العلماء وفساد الأمراء سيؤدي حتماً إلى فساد أوضاع الأمة الاجتماعية والسياسية والاقتصادية ، وسيؤدي إلى انتشار الفتن فيها فتتراجع حضارتها وتذهب ربحها ، وقد أشار القرطبي - رحمة الله - إلى ذلك ، فعند تفسير قوله تعالى : ﴿ وإذ أخذنا ميثاقكم لا تسفكون دماءكم ولا تخرجون أنفسكم من دياركم ثم أقررتم وأنتم تشهدون ﴾ (٧٠) ، قال وإنما كان الأمر أن الله تعالى قد أخذ على بني إسرائيل في التوراة ميثاقاً ألا يقتل بعضهم بعضاً ، ولا ينفيه ولا يسترقه ، إلى غير ذلك . وهذا كله محرم علينا ، وقد وقع ذلك كله بالفتن فينا ، فإننا لله وإننا إليه راجعون (٧١) .

وفي الآية نفسها يذكر القرطبي أن العلماء قالوا : كان الله قد أخذ عليهم أربعة عهود : ترك القتل ، وترك الإخراج ، وترك المظاهرة ، وفداء أسراهم فأعرضوا عن كل ما أمروا به من الفداء ... ثم يقول : ولعمر الله لقد أعرضنا نحن عن الجميع بالفتن ، فتظاهر بعضنا على بعض ! ليت بالمسلمين ، بل بالكافرين ! حتى تركنا إخواننا أذلاء صاغرين يجرى عليهم حكم المشركين ، فلا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم (٧٢) . وفي عرض بيانه حرص الرسول صلى الله عليه وسلم على هذه الأمة يعرض القرطبي للسبب الذي أوصل الأمة إلى العقاب الوارد في قوله صلى الله عليه وسلم : « إنما مثلي ومثلي أمتي

كمثل رجل استوقد نارا فجعلت الدواب والفراش يقعن فيه ، وأنا آخذ بحجزكم وأنتم تقحمون فيه » رواه مسلم . فيقول : هذا مثل لاجتهاد نبينا عليه الصلاة والسلام في نجاتنا ، وحرصه على تخلصنا من الهلكات التي بين أيدينا ، فهو أولى بنا من أنفسنا ولجهلنا بقدر ذلك وغلبة شهوتنا علينا ، وظفر عدونا بنا . صرنا أحقر من الفراش وأذل من الفراش ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم (٧٢) .

وإذا كان الجهل قد أوصل الأمة إلى هذه النتيجة فكيف نعالجهم ؟ وكيف نسترجع مكانتنا وهيبتنا بين الأمم ؟ الجواب قطعاً بالرجوع إلى الكتاب والسنة ، لكن كيف ؟ هذا هو السؤال الذي ينبغي أن تتوجه إليه عناية العلماء ! وبين القرطبي بعض البدع والمفاسد المنتشرة بين الناس في عصره ، فعند تفسير قوله تعالى : ﴿ كل نفس ذائقة الموت ... ﴾ (٧٤) ، ذكر ما يتعلق بالجنازة فبعد غسلها وتكفينها وحملها فالحكم الإسراع في المشي لقوله عليه السلام أسرعوا بالجنازة ... الحديث ، لا كما يفعله اليوم الجهال . في المشي وريداً ، والوقوف بها المرة بعد المرة ، وقراءة القرآن بالألحان إلى ما لا يحل ولا يجوز حسب ما يفعله أهل الديار المصرية بموتاهم (٧٥) .

وبين - نقلاً عن العلماء - أن الأحوال في هذه الأزمان قد انقلبت فأصبح الناس يأتون المنجمين والكهان لاسيما بالديار المصرية ، فقد شاع في رؤسائهم وأتباعهم وأمرائهم اتخاذ المنجمين ، بل ولقد انخدع كثير من المنتسبين للفقهاء والدين فجاءوا إلى هؤلاء الكهنة والعرافين فيخرجون عليهم بالمحال واستخرجوا منهم الأموال ، فحصلوا من أقوالهم على السراب والآل ، ومن أديانهم على الفساد والضلال (٧٦) .

وفي سياق التحذير من البدع بوجه عام ذكر أن القرآن حذر من التبديل والتغيير والزيادة في الشرع ... وأورد تحذير الرسول صلى الله عليه وسلم من افتراق الأمة إلى ثلاث وسبعين فرقة ... ثم قال : وقد وقع ما حذره وشاع ، وكثر وذاع ، فإنا لله وإنا إليه راجعون (٧٧) . وهو تعليق ليس في هذا القول يقتضي أن يشهد عصره نهاية الإسلام ، أو انقطاع أمة محمد بعده ، وكأنه سوف لا يلحق الأمة افتراق بعد ذلك (٧٨) .

ويشير إلى بعض المفاسد الأخرى عند الناس في سياق الحديث عن غض البصر في قوله تعالى ﴿ قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم ... ﴾ (٧٩) ، ذكر أن بهذه الآية حرم

العلماء نصا دخول الحمام بغير مئزر ، ثم قال : أما دخول الحمام فى هذه الأزمان فحرام على أهل الفضل والدين ، لغلبة الجهل على الناس واستسهالهم إذا توسطوا الحمام رموا مآزرهم ، حتى يرى الرجل البهى ذو الشيبة قائما منتصباً وسط الحمام وخارجه بادياً عن عورته ، ضاماً بين فخذه ، ولا أحد يغير عليه ، هذا أمر بين الرجال فكيف بالنساء ! لاسيما فى الديار المصرية إذ حماماتهم خالية عن المظاهر التى هى عن أى من الناس سواتر ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم ^(٨٠) .

وذكر القرطبى مفاصد النساء وما أحدثته من فتن ، ففى بيانه معنى قوله تعالى : ﴿ غير متبرجات بزينة وأن يستعففن خير لهن والله سميع عليم ﴾ ^(٨١) استشهد بقوله عليه الصلاة والسلام : « ... ونساء كاسيات عاريات رؤسهن كأئمة البخت ... الحديث ، وبين أن المعنى الأصح فى تأويل الحديث هو أنهن كاسيات من الثياب عاريات من لباس التقوى ، ثم قال : وهو اللاتق بهن فى هذه الأزمان ، وخاصة الشباب فإنهن يتزين ويخرجن متبرجات ، فهن كاسيات من الثياب عاريات من التقوى حقيقة ، ظاهراً وباطناً ، حيث تبدى زينتها ، ولا تبالى بمن ينظر إليهن بل ذلك مقصودهن ، وذلك مشاهد فى الوجود منهن ، فلو كان عندهن شئ من التقوى لما فعلن ذلك ، ولم يعلم أحد ما هنالك . وما يقوى هذا التأويل ما ذكر من وصفهن فى بقية الحديث فى قوله : رؤوسهن كأئمة البخت ... شبه رؤوسهن . بها لما رفعن من ضفائر شعورهن على أوساط رؤوسهن . وهذا مشاهد معلوم ، والتاظر إليهن ملوم ^(٨٢) ولم يبين القرطبى حد إبداء النساء فى زمنه لزينتهن ، لنعرف نوع التبرج الذى كن يمارسنه !

ويتصل بهذه القضية حديثه عن التبرج فى الأسواق ، فقد نقل عن ابن العربى قوله : ... أما الأسواق فسمعت مشيخة أهل العلم يقولون : « لا يدخل إلا سوق الكتب والسلاح ، وعندى أنه يدخل كل سوق للحاجة إليه ولا يأكل فيها لأن ذلك إسقاط للمروءة وهدم للحشمة » . فيقول القرطبى معلقاً : ما ذكرته مشيخة أهل العلم فنعمما هو ، فإن ذلك خال عن النظر إلى النسوان ومخاطبتهن إذ ليس بذلك من حاجتهن . وأما غيرها من الأسواق فمشحونة منهن ، وقلة الحياء قد غلبت عليهن حتى ترى المرأة فى القيساريات وغيرهن قاعدة متبرجة بزينتها ، وهذا من المنكر الفاشى فى زماننا هذا ، نعوذ بالله من سخطه ^(٨٣) .

وفى تفسير قوله تعالى ﴿ حتى زرتم المقابر ﴾ ^(٨٤) ذكر أن الشواوب من النساء حرام عليهن الخروج لزيارة القبور ، وأما القواعد فمباح لهن ذلك . وجائز لجميعهن ذلك إذا انفردن بالخروج عن الرجال ، ولا يختلف في هذا إن شاء الله ، وعلى هذا المعنى يكون قوله : القبور . وأما موضع أو وقت يخشى فيه الفتنة من اجتماع الرجال والنساء ، فلا يحل ولا يجوز - وقال ملمحا - فبينما الرجل يخرج ليعتبر ، فيقع بصره على امرأة فيفتن وبالعكس ، فيرجع كل واحد من الرجال والنساء مأزورا غير مأجور ، والله أعلم ^(٨٥) .

وقال ملمحا إلى بعض المفاصد الاجتماعية التي تنم عن رقة في الدين عند تفسير قوله تعالى : ﴿ لتستووا على ظهوره ثم تذكروا نعمة ربكم إذا استويتم عليه وتقولوا سبحان الذي سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين ﴾ ^(٨٦) ، قال : وستعيذ بالله من مقام من يقول لقرنائه : تعالوا نتنزه على الخيل أو في بعض الزوارق ، فيركبون حاملين مع أنفسهم أواني الخمر والمعازف ، فلا يزالون يستقون حتى تمل طلاهم وهم على ظهر الدواب ، أو في بطون السفن وهي تجرى بهم ، لا يذكرون إلا الشيطان ، ولا يمثلون إلا أوامره ^(٨٧) . وعند تفسير قوله تعالى : ﴿ ... إلا من اغترف غرفة بيده ... ﴾ ^(٨٨) أشار ملمحا إلى أن من أراد الحلال الصرف في هذه الأزمان دون شبهة ولا امتراء ولا ارتياب فليشرب بكفيه الماء من العيون والأنهار المسخرة بالجريان آنا الليل وآنا النهار ، مبتغيا بذلك من الله كسب الحسنات ، ووضع الأوزار ، واللاحق بالأئمة الأبرار ^(٨٩) . ويوحى هذا الكلام بأن تحرى الحق في زمنه يكاد يكون معدما أو نادرا ، وهو تصوير يائس لأحوال الناس .

خامساً : متفرقات :

هناك بعض القضايا المتناثرة التي ذكرها القرطبي مما يتصل بواقع عصره على وجه العموم ، وهي :

- ١ - بين أن في قوله تعالى ﴿ وليضررين بخمرهن على جيوبهن ﴾ دليلاً على أن الجيب إنما يكون في الصدر موضع الثوب وكذلك كانت الجيوب في ثياب السلف رضوان الله عليهم ؛ على ما يصنعه النساء عندنا بالأندلس وأهل الديار المصرية من الرجال والصبيان وغيرهم .

- ٢ - ذكر بعض القضايا الفكرية الواقعية على ندرتها ، فقد ذكر أن الآية في قوله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا ليستأذنكم الذين ملكت أيمانكم والذين لم يبلغوا الحلم منكم ثلاث مرات ... ﴾ ^(٩٠) ليست منسوخة ولكن على أنها كانت على حال ثم زالت ، فإن كان مثل ذلك الحال فحكمها قائم كما كان بل حكمها لليوم ثابت في كثير من مساكن المسلمين في البوادي والصحارى ونحوها ^(٩١) .
- ٣ - وقد ناقش واحد من مشايخ زمانه في قضية الأخذ بالأسباب ^(٩٢) وهي من القضايا الكبرى في الفكر الإسلامى قد سبق إلى تفصيلها الإمام الغزالي وغيره .
- ٤ - وتحدث عن أرض مصر وكيف كانت تروى بالنيل في عصره ، وذكر أنه لم يكن هناك اهتمام بعمارة الجسور النافعة لعملية الري ^(٩٣) .
- ٥ - وذكر عند تفسير قوله تعالى : ﴿ ثم أوردنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات بإذن الله ذلك هو الفضل الكبير ﴾ ^(٩٤) إن المنافق والكافر لا يدخلون الجنة وهم لم يصطفوا ، وأن الرسول صلى الله عليه وسلم قال : مثل المنافق الذي يقرأ القرآن مثل الريحانة ريحها طيب وطعمها مر ، فأخبر أن المنافق يقرأه وهو في الدرك الأسفل من النار ، وكثير من الكفار واليهود والنصارى يقرءونه في زماننا هذا . وقال مالك : قد يقرأ القرآن من لا خير فيه ^(٩٥) .

موقف القرطبي من واقع عصره :

وبعد ، فهل يمكن أن نلمح موقفاً للقرطبي مما جرى في العالم الإسلامى في عصره؟ لم أستطع أن أجد موقفاً يبرز دوره كعالم مفسر أو كقيادة فكرية فطبيعة دور المفسر تقتضى منه بيان الهدى الآلهى للناس ، والكشف عن هذه الهداية للناس ، لأنه الوحيد القادر على أن يمثل دور المفسر الأعظم محمد صلى الله عليه وسلم في قيادة الحياة وتوجيهها على حسب ما تتيحه الأحوال ، بل الذى أكاد ألمحه هو العكس ، أعنى لقد بنى القرطبي رحمه الله موقفاً سلبياً تجاه الأوضاع السائدة في عصره ، وذلك لسببين رئيسين ، هما :

السبب الأول : طبيعة الحياة التى ارتضاها القرطبي -- رحمه الله - لنفسه ، فقد غلب عليه الزهد في الحياة الدنيا مما كان له أثر في انعزاله عن معالجة وتحليل مشكلات

عصره ، ووصف العلاج القرآني لها ، يشهد لهذا قول العلماء فيه : كان من عباد الله الصالحين ، والعلماء العارفين الورعين ، الزاهدين ، في الدنيا ، المشتغلين بما يعينهم من أمور الآخرة فيما بين توجه وعبادة وتصنيف (٩٦) .

ويشهد له تلميحه إلى أن العزلة عن الناس في الصوامع والبيوت مندوبة ، وذلك عند فساد الزمان وتغير الإخوان (٩٧) مستشهداً بقوله تعالى : ﴿ ورهبانية ابتدعوها ما كتبناها عليهم إلا ابتغاء رضوان الله . . . ﴾ (٩٨) .

وحاكي كلام ابن العربي في قوله : إن التبتل المنهي عنه ، هو سلوك مسلك النصاري في ترك النكاح والترهب في الصوامع ، لكن عند فساد الزمان يكون خير مال المسلم غنما يتبع بها شعف الجبال ومواقع القطر ، يفر بدينه من الفتن (٩٩) .

بل ، لقد أعطى القرطبي أهمية للعزلة وفصل فيها القول على صورة لا تزيد من الدنيا إلا نفورا وهجرانا ، خوفاً من فتنها ، فذكر أن قوله تعالى : ﴿ إذ أوى الفتية إلى الكهف ﴾ (١٠٠) صريح في الفرار بالدين وهجرة الأهل والقرباء والأصدقاء والأوطان والأموال خوف الفتنة ، وما يلقيه الإنسان من المحنة . ثم ذكر أحوال الناس في هذا الباب ، وأرفعها سكنى الكهوف الجبال وهي الحالة التي أختارها الله لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم في بداية أمره . ثم قال : رب رجل تكون العزلة له بيته أخفى عليه وأسهل ، وقد اعتزل رجال من أهل بدر فلزموا بيوتهم بعد قتل عثمان فلم يخرجوا إلا إلى قبورهم ورب رجل متوسط بينهما فيكون له من القوة ما يصبر بها على مخالطة الناس وأذاهم ، فهو معهم - في الظاهر ومخالف لهم في الباطن . ثم ذكر خبر عن وهب بن منبه قوله لرجل عزم على عدم مخالطة الناس : لا تفعل ! إنه لا بد لك من الناس ، ولا بد لهم منك ، ولك إليهم حوائج ، ولهم إليك حوائج ، ولكن كن فيهم أصم سميعاً ، أعشى بصيراً ، سكوتاً نطقاً (١٠١) .

وروج في كتاب : التذكرة قضية العزلة وطرقها في أكثر من موضع (١٠٢) والأخطر من ذلك أنه بعد أن بين اعتزال الصحابة بعد استشهاد عثمان رضي الله عنه ، قال معلقاً : هذا ، وكانت الفتنة والقتال بينهم على اجتهاد منهم ، فكان المصيب منهم له أجران ، والمخطئ ، أجر واحد ، ولم يكن قتال على الدنيا ، فكيف اليوم الذي تسفك فيه الدم

باتباع الهوى طلبا للملك والاستكثار من الدنيا ، فوجب على الإنسان أن يكف اليد واللسان عند ظهور الفتن ونزول البلياء والمحن (١٠٣) .

والمشكل فى تبني هذا الموقف هذا التفريق غير المنضبط بين الدنيا والآخرة ، وهذا الفهم للواقع الذى يتخذ الموقف على ضوئه ، وعليه فإن عصر القرطبي كانت الفتن فيه على الدنيا فينبغى اعتزالها وتركها لأهلها . وقد ذكر القرطبي كلاما عن الطبري فى غاية الأهمية ، وهو قوله : لو كان الواجب فى كل اختلاف يكون بين الفريقين من المسلمين الهرب منه ولزوم المنازل وكسر السيوف لما أقيم حد ، ولا أبطل باطل ، ولوجد أهل النفاق والفجور سبيلا إلى استحلال كل ما حرم الله عليهم من أموال المسلمين ، وسبى نسائهم ، وسفك دمائهم بأن يتحزبوا عليهم ، ويكف المسلمون أيديهم عنهم ، بأن يقولوا هذه فتنة قد نهينا عن القتال فيها . وأمرنا بكف الأيدي والهرب منها ، وذلك مخالفة لقوله عليه الصلاة والسلام « خذوا على أيدي سفهائكم » (١٠٤) ولم يتبين القرطبي رحمه الله على الصعيد السياسى هذا الموقف ، فيقوم أو يدعوا إلى إصلاح ما كان يحدث بين زعماء الطوائف ، والسبب هو ما تقدم ذكره من اقتتالهم على الدنيا ، أو أن حالهم ميؤس منه .

أقول إن الاعتماد على أحاديث العزلة فى تبني هذا الموقف مشكل لأمرين ، هما :

١ - إن أحاديث العزلة فهمت بمعزل عن ملاساتها وظروفها ، أو بعبارة أخرى بمعزل عن السياق الذى وردت فيه . ثم إن الفتنة الكبرى التى حدثت بين الصحابة ألفت بظلالها على ما يحدث بعد ذلك فى العصور اللاحقة .

٢ - إن هذه الأحاديث لم تفهم على ضوء مقاصد القرآن وغاياته ، فالبرغم من عدم اتفاقها مع مقاصد القرآن وغاياته ، نجد أن النزعة الفردية غالبية على فهمها ، أعنى : إن الهم أن ينصرف إلى نجاة الفرد نفسه وترك الأمة تواجه مصيرها بنفسها ، وهو أمر يتنافى مع دور المسلم كحامل للرسالة العالمية ، وموجه للحياة البشرية .

والسبب الثانى : ويتصل بالسبب الأول ، وهو تأثر القرطبي - رحمه الله - بأحاديث الفتن وأشرط الساعة ، وقد تجلّى هذا فى كتابه التذكرة ، فقد كان يبين أن كثيرا من الفتن وأشرط الساعة قد ظهر فى عصره (١٠٥) ، من ثم فإن الساعة وشيعة الوقوع ، وبيان ذلك :

١ - عند بيانه صفة ولاة آخر الزمان ذكر أن ما أخبر به النبى صلى الله عليه وسلم فى هذا الباب قد وقع أكثره وشاع فى الناس معظمه ، فوسد الأمر إلى غير أهله ، وصار

رؤوس الناس أسافلهم عبيدهم وجهالهم فيملكون البلاد والحكم في العباد ، فيجمعون الأموال ويطيّلون البنيان كما هو مشاهد في هذه الأزمان ، فلا يسمعون موعظة ولا ينزعجون عن معصية فهم صم بكى عمى^(١٠٦) فكيف لو رأى التناول في البنيان في زماننا ، وكم من عالم ردد هذا القول ، وحذر الناس قرب قيام الساعة ، وأسقط أحاديث الساعة على واقعه .

٢ - ذكر في معنى قوله عليه السلام : أن تلد الأمة ربتها نقل عن العلماء : وذلك بأن يستولي المسلمون على بلاد الكفر ، فيكثر التسرى فيكون ولد الأمة من سيدها بمنزلة سيدها لشرفه ومنزلته بأبيه ، وعلى هذا فالذي يكون من أشرار الساعة استيلاء المسلمين واتساع خطتهم وكثرة الفتوح ، وهذا قد كان . ثم ذكر أقوالاً أخرى في معنى الحديث كغلبة الجهل بتحريم بيع أمهات الأولاد ، أو يكون المعنى كناية عن كثرة العقوق . ثم قال القرطبي : وهذا ظاهراً في الوجود من غير نكير ، مستفيضاً وشهير . ثم ذكر قولاً عن أحد شيوخه أن المعنى هو الإخبار عن استيلاء الكفار على بلاد المسلمين . كما في هذه الأزمان التي استولى العدو فيها على الأندلس وخرا سان وغيرهما من البلدان ، فتسبى المرأة وهي حبلى أو ولدها صغير فيفارق بينهما فيكبر الولد فرمياً يجتمعان ويتزوجها كما قد وقع من ذلك كثير فإن لله وإنا إليه راجعون^(١٠٧) ولا شك أن هذا كلام عجيب ، ويل منهج في فهم الأحداث خطير ، إذا يغرس في أذهان العامة أن الأمر أنف ، وأن الاستسلام للأحداث هو أقرب طريق للخلاص ، فالساعة على وشك الوقوع . والقرطبي رحمه الله مخطئ في هذا الفهم .

٣ - وذكر ما أخبر عنه الرسول عليه الصلاة والسلام علامات الساعة من حدوث خسف في المشرق وخسف في المغرب وخسف في جزيرة العرب ثم ذكر أن أول الآيات الخسوفات الثلاثة ، وذكر عن ابن وهب أن بعضها قد وقع في زمن النبي صلى الله عليه وسلم ، وعن ابن الجوزي أنه وقع بعراق العجم زلازل وخسوفات هائلة هلك بسببها خلق كثير . ثم قال القرطبي : وقد وقع ذلك عندنا بشرق الأندلس فيما سمعنا من بعض مشايخنا بقرية يقال لها « قطر طندة » من قطر دانية ، سقط عليها جبل هناك فأذهبها^(١٠٨) . فإذا كان سقوط جبل من علامات الساعة ، فكيف بدمار مدن كبرى ، كما شاهدنا أخيراً في مدينة كويتية اليابانية .

٤ - ذكر حديثا مرويا عن معاوية : ستفتح بعدى جزيرة تسمى الأندلس ... ثم قال : كل ما وقع فى حديث معاوية هذا فقد شاهدنا بتلك البلاد ، وعائنا معظمه إلا خروج المهدي (١٠٩) .

٥ - وانظر إلى منهج القرطبي فى فهم هذه الأحداث: حيث أشار إلى أن علامات الساعة الكبرى يتقدمها قبض العلم وغلبة الجهل واستيلاء أهله ، وبيع الحكم ، وظهور المعازف ، واستفاضة شرب الخمر ، واكتفاء النساء بالنساء ، والرجال بالرجال ، وإطالة البنيان ، وزخرفة المساجد ، وإمارة الصبيان ، ولعن آخر هذه الأمة أولها ، وكثرة الهرج ، وهى أسباب حادثة ، ورواية الأخبار المنذرة بها بعد ما صار الخبر بها عيانا تكلف ، لكن لا بد من ذكرها حتى يوقف عليها ، ويتحقق بذلك معجزة الرسول صلى الله عليه وسلم وصدقه فى كل ما أخبر به (١١٠) وأقول : إن الرسول صلى الله عليه وسلم صادق فى كل ما نطق به ، ومعجزته قائمة فى كل حين ، لكنه عليه السلام لم يخبر أن وقوع هذه الأحداث سيكون فى عصر القرطبي ، ولم يقل إن هذه العلامات تسوغ للمرء العزلة والاستسلام لها . ومبدأ الأخذ بالأسباب واجب يفرضه القرآن .

٦ - وذكر القرطبي معلقا على ما جاء فى الحديث ويتقارب الزمان ، تقارب الزمان تقارب أحوال أهله فى قلة الدين حتى لا يكون فيهم من يأمر بالمعروف ولا ينهى عن المنكر ، كما هو اليوم لغلبة الفسق وظهور أهله (١١١) وهو كلام يدل على حالة اليأس التى وصل إليها القرطبي ، وهى حالة مخالفة لطبع العلماء ، بل وعامة الناس .

- ثم ذكر حتى يمر الرجل بقبر الرجل فيقول ليتنى مكانه ، لما يرى فى عظيم البلاء ، وريح الأعداء ، وغبن الأولياء ورئاسة وخمول العلماء ... كما فى هذا الزمان (١١٢) وأقول : نحن أولى بهذا الكلام بعد سبعمئة وأربعين سنة تقريبا من وفاة القرطبي ، ومع ذلك فمفهوم السببية يحتم مواجهة الأحداث بعقلية ومنهجية فى إطار غايات القرآن ومقاصده .

٧ - والأخطر من ذلك أيضا تعليقه على ما جاء فى الحديث : ... حتى خمسين امرأة القيم الواحد ، قال : وقد كان هذا عندنا أو قريبا منه بالأندلس (١١٣) .

أضف إلى هذين السببين طبيعة المنهج التقليدي الذي رسمه القرطبي في تفسير القرآن ، والذي قصر البحث فيه على قضايا العلم لا قضايا الواقع . فتكاد تلمح من هذا كله نفسية القرطبي وحقيقة موقفه الذي تبناه في مواجهة الأحداث كمفسر للقرآن الكريم ، وهو الإشكال الحقيقي في العمل التفسيري . إن مجموع الصفحات التي دونها القرطبي في تفسير القرآن مما له صلة بواقع عصره لم يتجاوز العشرين صفحة ، بينما بلغ مجموع ما دونه القرطبي من صفحات في تفسيره للقرآن كله - في الطبعة الحديثة - سبعة آلاف وأربعمائة وأربعاً وأربعين صفحة ، وبعبارة أخرى إن الواقع لم يحظ بجهد القرطبي إلا بنسبة مئوية لا تكاد تذكر ، هذا من حيث الكم ، أما من حيث الكيف فلم تتوجه عنايته إلى تحليل قضايا عصره عناية المفسر المصلح المبين لهداية القرآن ، وكيف يكون ملجأ للأمة في كل حين . إن ما أشار فيه القرطبي إلى بعض أوضاع عصره ليس بشيء ، في مقابل الكم التفسيري الهائل الذي دونه في تفسير القرآن الكريم كله ، وليس بشيء ، كذلك في مقابل الأحداث الجسام والمرض العضال الذي كانت تتجرعه الأمة وتعاني منه في عصره ، ولمزيد من التوضيح أقول :

- إن حديث القرطبي لم يكن متوجها مباشرة إلى هذه الأحداث والوقائع المؤلمة بل جاء تعقيباً أو تعليقا في ثنايا الآيات في الأعم الأغلب .

- إن البعد التحليلي لهذه الوقائع والأحداث والأمراض لم يكن متوجها إليه عند القرطبي ، فلم يذكر الأسباب التي أوصلت الأمة إلى مثل هذه الحال ، ولم يتوجه باقتراحات أو آراء عملية لإصلاح تلك الأوضاع . وكان الحديث في الغالب منصبا على الوصف المجرد ، وذكر الأحداث فحسب !

- لم يكن حديث القرطبي في موضوع الجهاد على وجه الخصوص يناسب طبيعة المرحلة والأحداث التي كانت تمر بها الأمة آنذاك سواء في بلاد المغرب أو في بلاد المشرق ، حتى القضايا التي ذكرها فيما يتصل بالجهاد كانت جزئية .

- حديث القرطبي عن علماء عصره كان مجرد وصف للحال الذي كانوا عليه ، وهو حال لم يكن طارئا على بيئة القرطبي ، وليس جديدا بالنسبة له ، لكن معالجته بهذا الوصف أمر قد يقبل من عوام الناس ، لا من مفسر عظيم كالقرطبي . لقد أنتقد الشيخ رشيد

رضا رحمه الله هذا المسلك من المفسرين كالغزالي والرازي والنيسابوري في حديثهم مثلاً عن فساد العلماء ، فقال : ومن العجيب أن هؤلاء العلماء تنبهوا في القرون الوسطى إلى سوء حال علماء الإسلام الذين يلقبهم الغزالي بـ « علماء السوء » لم يحاولوا معالجة هذا الداء واصطلام أورمته ، وهي تفرق المذاهب والتعصب لها ، بالدواء الذي وصفه الله تعالى في كتابه ، وهو تأليف أمة تدعو إلى الاعتصام ، وتأمير بالمعروف وتنهي عن المنكر ، بل اكتفى بعضهم بالشكوى من ذلك وإنكاره في الكتب التي يؤلفها^(١١٤) ، وقد تحدث القرطبي عن حال العلماء ، واكتفى بالتعليق على الوضع المأساوي لهم ببيان أن حالهم في زمانه أعجب من حال من كان في زمن الإمام مالك - رحمه الله - .

- الحوقلة والاسترجاع والدعاء عبارات كان يعلق ، بها القرطبي على أوضاع العصر الفاسدة ، فهل نكتفى من مفسر عظيم بهذا القدر من التعليق ؟ وإذا كان ذلك كذلك فبماذا يتميز العالم المفسر عن عوام الناس ! ليس مطلوباً من المفسر أن يسير الجيوش ويؤجج الجماهير على الثورة ضد حكام عصره أو أعداء المسلمين ، ولكن المطلوب منه أن يعنى بقضايا الواقع عناية الطبيب بالمريض ، ولماذا يفترض أن لا يكون المفسر مصلحاً وهو يتعامل مع نص قرآني خالد مطلق يتنزل في كل عصر خاصاً لأهل ذلك العصر ؟ ولم يفصل بين الإصلاح والتفسير ولم ينشغل المعنيون بقضايا العلم عن قضايا الواقع ، بل يفصلون بينهما وكأنهما على عدا ، أو أن هذا ليس من شأن المفسر !

لقد عنى القرطبي - رحمه الله - ببيان الأحكام وأسباب النزول والقراءات واللغة ، وهي قضايا قد سبق إليها . وقد أخذت الإسرائيليات منه جهداً أكثر من هذا ، وظهرت على حساب بيان السنن الإلهية في القصص القرآني ، واستغرقت منه صفحات كثيرة ، مع أن القرطبي نفسه يقول : « والإسرائيليات مرفوضة عند العلماء على البتات ، فأعرض عن سطورها بصرك ، واصمم عن سماعها أذنيك ، فإنها لا تعطى فكرك إلا خيالاً ، ولا تزيد فؤادك إلا خيالاً »^(١١٥) .

على أن هناك بعض الصفحات المشرقة من تاريخنا الإسلامي الذي عاشه القرطبي رحمه الله حقيقة بأن يسلط الضوء عليها وتدرس دراسة منهجية ، فقد دحر المسلمون

التتار والصليبيين فى حروب ومعارك كثيرة فى المشرق والمغرب ، أهمها معركة عين جالوت التى وقعت سنة ٦٥٨ هـ فى المشرق . وجاء الخبر من الأندلس بأن المسلمين انتصروا على الفرنج ، وقتلوا خمسة وأربعين ألفا ، وأسروا عشرة آلاف ، واسترجعوا منهم اثنتين وأربعين بلدة، منها : برنس ، وأشبيلية ، وقرطبة ، ومرسية فى رمضان سنة ٦٢٢ هـ (١١٦) .

ومنها : أن الملك الأشرف موسى بن العادل لما ولى دمشق سنة ٦٢٦ نادى مناديه أن لا يشتغل أحد من الفقهاء بشىء من العلوم سوى التفسير والحديث والفقه ، ومن اشتغل بالمنطق وعلوم الأوائل نفى من البلد (١١٧) .

هذا إضافة إلى كثير من المواقف الأبية التى اتخذها بعض الحكام ، لكن القرطبى - رحمه الله - لم يركز على هذه الجوانب الإيجابية فى واقع تاريخنا الإسلامى .

هذا حصيلة ما ذكره القرطبى - رحمه الله - وبه يعلم مدى واقعية كلام من يدعى أن القرطبى تحدث عن الواقع واهتم بقضاياه ، وبه أيضا يعلم مدى واقعية كلام د. صلاح عبد الفتاح الخالدى - فى قوله : أن كل جيل من أجيال المسلمين كان يجد فى نصوص القرآن حديثا لواقعة وإصلاحا لحياته ، وكأنها تنزلت اللحظة عليهم ، وكل مفسر من المفسرين كان ينطلق من نصوص القرآن لتربية قومه وإصلاح أمورهم ، وكل تفسير من تفاسير القرآن يمكن أن تستخرج منه الحالة الثقافية والمستوى الحضارى والوضع الأخلاقى والاجتماعى والإيمانى والسلوكى للعصر الذى عاش فيه المفسر ، وكان هذا التفسير سجلا حضاريا تاريخيا وثائقيا لحالة ذلك العصر ، وما هذا إلا لأن نصوص القرآن منطبقة على زمان المفسر ومكانه وموجهه للناس من حوله (١١٨) .

إن العبارات الساخطة اللاذعة التى أطلقها بعض المفسرين والعلماء منتقدين بعض الأوضاع السيئة التى كانت سائدة فى عصرهم ، ليست هى الواقعية التى نعيها ، وهى مع ذلك لا تشكل منهجا لواحد منهم ، ولا تؤصل طريقة فى معالجة أوضاع الواقع من خلال القرآن الكريم .

أقول : ليس مطلوبوا من المفسر أن يفسر القرآن كله ، فرسول الله صلى الله عليه وسلم لم يكن يفسر من القرآن إلا ما كانت تدعو إليه الحاجة ، فلم لا نتأسى به صلى الله عليه وسلم فى تفسير ما تدعو إليه حاجة وأوضاع عصرنا ، وأمراض وآلام عصرنا . بتدبر

القرآن وربطه بحياة الناس ليشعر الناس أن القرآن قريب منهم وأن صلته وثيقة بحياتهم ،
بدل أن يتحول تفسيره إلى تاريخ بعيد الصلة عن حياة الناس !!

إن الذى يقتضيه معنى التفسير وحقيقته أن يكون المفسر ملزماً بالإطلاع على بيئة
عصره ، وامتكاناً من ثقافة عصره ، وأن يكون حاضراً بفكره وعلمه فى واقع عصره ،
مؤثراً فيه ليس هارباً منه ولا غائباً عنه .

إن البعد عن معالجة قضايا الواقع وتحليلها ، وقصر التفسير على طرق قضايا علمية
مكررة - هو الإشكال الحقيقى فى العمل التفسيرى ، والذى جاء نتيجة اشتغال المفسر
- على وجه الخصوص - بقضايا العلم النظرية وتفصيلها الجزئية . ودليل آخر على عدم
الواقعية فى النهج التفسيرى أن هذه الكتب القيمة فى التفسير كان لها شأن كبير عند
علماء المسلمين ، ولكنها مع ذلك لم تؤلف للعوام من الناس ، ولم يعن جمهور العوام
بالذين يحظون باهتمام المفسرين ، فما هى كتب التفسير التى توجهت إلى خطاب
الجمهور!!

وينبغى أن يفهم القارئ أننى لا أقصد إلى التعريض بواحد من المفسرين ، وأرجو
أن يتجاوز التقعر فى النقد ، والطعن فى النيات ، ليدرك قضية أخرى أعظم ضرراً ، وهى
سير العمل التفسيرى الحديث على غرار النهج التفسيرى القديم جمع اختلاف قضايا العلم
وجزئياته التى يحشو بها المفسر الحديث تفسيره للقرآن الكريم . وليعلم أن واقع التعليم فى
المؤسسات والمعاهد التعليمية المعاصرة هو واقع قد حذا حذو القذة بالقذة النهج التقليدى
القديم فى منهج تفسير القرآن الكريم ، فهنا نحن اليوم - طلبة الدراسات الشرعية
وأساتذتها نذهب إلى عمق التراث ندرس قضاياها وهمومها دون التفات إلى هموم واقعنا
وقضاياها ، وإبداء الاجتهاد والرأى وإيجاد الحلول التى تواجه هذه التحديات ، بينما يذهب
طالب الطب ليدرس مرضاً ما انتشر فى بلد معين ، ويذهب طالب الزراعة ليدرس نوعاً من
الفطريات أو الحشرات فى منطقة ما ، ويذهب طالب الاقتصاد ليدرس خللاً ما فى ميزان
المدفوعات ، ويذهب طالب الاجتماع ليدرس ظاهرة ما ... كل القضايا التى يبحثون فيها
قضايا واقعية ، حتى الحشرات تستحق أن يكتب فيها رسائل دكتوراه ، إلا طالب الشريعة
فإنه يذهب للبحث فى مسائل أغلبها نظرى ، وتجده يتكلم فى القرآن والسنة والفقه ، فإذا
ما جاء إلى قضية واقعية وجم !!

الهوامش

- ١ - سورة الإسراء آية ٩ .
- ٢ - إنما اخترت القرطبي موضوعاً للدراسة المفصلة : لأنني كنت قد ألفت بحثاً في مؤتمر علوم الشريعة في الجامعات الذي نظمها المعهد العالي للفكر الإسلامي بالتعاون مع بعض الجامعات الأردنية في صيف ١٩٩٤ م ، بعنوان : « نحو منهجية منضبطة في تفسير القرآن » ، وأشارت إلى هذه القضية ، وقلت : إن القرطبي لم يتحدث عن واقع عصره حديثاً منهجياً ... وكاد رد أحد المحاضرين بأن هذه فرية ، وأن القرطبي تحدث عن واقع عصره ، فلما ذكر قرطبة قال : أعادها الله ، وأنه لما ذكر وفاة والده ذكر بعض ما حدث في الأندلس ورد باحث آخر بأنه تتبع الأجزاء الأربعة الأولى من تفسير القرطبي ورأى أنه كانت يتحدث عن واقع عصره كالرشوة وفساد الحكام .
- ٣ - انظر: أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن تيمية : مقدمة في أصول التفسير ، تحقيق د/ عدنان زرزور (بدون تاريخ) دار القرآن ، الكويت ص ٩٣ .
- ٤ - سورة النساء آية ١٠٥ .
- ٥ - أخرجه الطبري ، قال الشيخ محمود شاكر : إسناده صحيح متصل. انظر : جامع البيان عن تأويل أي القرآن لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري ، بتحقيق محمود شاكر ، ومراجعة أحمد شاكر (١٣٧٤هـ) ، دار المعارف ، مصر ، ج ١ ، هامش ص ٨٠ ، وأحمد بن شعيب النسائي : فضائل القرآن ، تحقيق فاروق حمادة (١١٩٢) ، دار إحياء العلوم ، الدار البيضاء ، ص ٩٩ - ١٠٠ ، وأبو بكر جعفر بن محمد الفريابي ، فضائل القرآن تحقيق يوسف عثمان جبريل (١٩٨٩) ، مكتبة الرشد ، الرياض ، ص ٢٤١ ، حديث رقم ١٦٩ .
- ٦ - أخرجه الحاكم وقال : صحيح الإسناد ولم يخرجاه ، ووافقه الذهبي ، انظر: أبو عبد الله بن البيع النيسابوري الحاكم المستدرك على الصحيحين (بدون تاريخ) ، دار المعرفة ، بيروت ، ج ٤ ، ص ٤٣٢ ، ومحمد ناصر الدين الألباني ، صحيح سنن أبي داود (١٩٨٩) ، مكتب التربية العربي لدول الخليج ، الرياض ج ٣ ، ص ٧٩٩ حديث رقم ٣٥٧١ .
- ٧ - أخرجه مالك ، انظر مالك بن أنس الأصبحي ، الموطأ (١٩٩٠) ، دار النفائس ، بيروت ، ص ١٣٧ - ١٣٨ حديث رقم ٤٧٩ .
- ٨ - الطبري جامع البيان (١٩٨٠) ، دار المعرفة ، بيروت ، ج ٣ ، ص ١٠٥ .
- ٩ - سورة الغاشية آية ١٧ .
- ١٠ - محمد حسين الذهبي : التفسير والمفسرون (١٩٧٦) ، دار الكتب الحديثة ، القاهرة ، ج ٢ ، ص ٤٦٤ .
- ١١ - انظر : أحمد بن محمد المقرئ : نفع الطيب من غصن الأندلس الرضيب ، تحقيق إحسان عباس (١٩٦٨) دار صادر ، بيروت ، ج ٤ ، ص ٣٨٣ .

- ١٢ - المصدر نفسه ، ج ٤ ، ص ٣٧٣ - ٤٦٩ ، ٤٧٩ ، وانظر د / عبد الرحمن على الحجى : الأندلسى (١٩٨٣) ، دار الاعتصام ، القاهرة ، ص ٤٦٤ - ٤٨٢ .
- ١٣ - الحجى : التاريخ الأندلسى ، مرجع سابق ، ص ٤٨٢ .
- ١٤ - القرى : نفح الطيب ، مرجع سابق ، ج ٤ ، ص ٥٠٧ .
- ١٥ - انظر عماد الدين اسماعيل بن كثير الدمشقى ، البداية والنهاية ، تحقيق خمسة من الأساتذة (١٩٨٥) دار الكتب العلمية ، بيروت ، ج ١٣ ، ص ٢٥٢ - ٢٥٣ .
- ١٦ - المصدر السابق نفسه ، ج ١٣ ، ص ٩٤ .
- ١٧ - المصدر نفسه ، ج ١٣ ، ص ٢١٥ ولمعرفة الأحداث ما بين سنتى ٦٦٠ : ٦٧١ هـ ، انظر : ج ١٣ ، ص ٤٠ - ٢٧١ .
- ١٨ - سورة البقرة آية ٢١٦ .
- ١٩ - أبو عبد الله محمد بن أحمد الانصارى القرطبى ، الجامع لأحكام القرآن (١٩٦٧) ، دار الكتاب العربى ، القاهرة ، ج ٣ ، ص ٣٩ .
- ٢٠ - سورة البقرة الآية ٢٢٢ .
- ٢١ - سورة البقرة الآية ٢٤٩ .
- ٢٢ - المصدر السابق نفسه ، ج ٣ ، ص ٢٥٥ .
- ٢٣ - سورة البقرة آية : ٢٤٥ .
- ٢٤ - المصدر نفسه ، ج ٣ ، ص ٢٣٧ .
- ٢٥ - سورة آل عمران آية : ١٦٩ .
- ٢٦ - المصدر نفسه ، ج ٤ ، ص ٢٧٢ .
- ٢٧ - سورة الأنفال آية ٧٢ .
- ٢٨ - المصدر نفسه ، ج ٨ ، ص ٥٧ .
- ٢٩ - انظر أبو بكر محمد بن عبد الله المعروف بابن العربى ، أحكام القرآن ، تحقيق على محمد البيجاوى (بدون تاريخ) ، دار المعرفة ، بيروت ، ج ٢ ، ص ٨٨٨ .
- ٣٠ - سورة التوبة آية ٤١ .
- ٣١ - المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٩٥٥ ، انظر الجامع لأحكام القرآن ، ج ٨ ، ص ١٥٢ - ١٥٣ .
- ٣٢ - نفح الطيب ، مرجع سابق ، ج ٤ ، ص ٤٧٧ .

- ٣٣ - سورة يوسف آية ١٧ .
- ٣٤ - الجامع لأحكام القرآن ، ج ٩ ، ص ١٤٦ .
- ٣٥ - سورة النساء آية ١٤١ .
- ٣٦ - سورة الشورى الآية ٣٠ .
- ٣٧ - المصدر نفسه ، ج ٥ ، ص ٢٤٠ .
- ٣٨ - سورة النحل الآية ٥ .
- ٣٩ - المصدر نفسه ، ج ١٠ ، ص ٧٠ ، وانظر أحكام القرآن لابن العربي ، ج ٣ ، ص ١١٤ .
- ٤٠ - انظر القاضي أبو اليمين مجير الدين الحنجلي ، الإنس الجليل بتاريخ القدس والخليل (١٩٧٣)
مكتبة المحتسب ، عمان ، ج ١ ، ص ٣٠٧ ، ٣١٧ ، ٤٠٦ ، ج ٢ ، ص ٥ - ٨ .
- ٤١ - سورة الإسراء الآية ٤٥ .
- ٤٢ - المصدر نفسه ، ج ١٠ ، ص ٢٧ .
- ٤٣ - سورة البقرة الآية ٣٤ .
- ٤٤ - المصدر نفسه ، ج ١ ، ص ٢٩٤ .
- ٤٥ - سورة يوسف الآية ١٠٠ .
- ٤٦ - المصدرة نفسه ، ج ٩ ، ص ٣٩ .
- ٤٧ - سورة البقرة الآية ٤٥ .
- ٤٨ - المصدر نفسه ، ج ١ ، ص ٣٧٥ .
- ٤٩ - سورة الكهف الآية ١٤ .
- ٥٠ - المصدر نفسه ، ج ١٠ ، ص ٣٦٦ ، وانظر ص ٣٦٦ ، وانظر ص ٢٦٣ - ٣٦٥ من الجزء نفسه .
- ٥١ - المصدر نفسه ، ج ١٣ ، ص ٨٠ .
- ٥٢ - المصدر نفسه ، ج ١٤ ، ص ٥٤ .
- ٥٣ - المصدر نفسه ، ج ١١ ، انظر الصفحات ١٣ ، ٢٤ ، ٩٥ ، ٢٣٨ .
- ٥٤ - انظر على سبيل المثال ، ج ١٨ ، ص ٢٨ - ١٤٣ .
- ٥٥ - سورة آل عمران آية ١١٨ .
- ٥٦ - المصدر نفسه ، ج ٤ ، ص ١٧٩ .
- ٥٧ - سورة الجمعة آية ٩ .

- ٥٨ - المصدر نفسه ، ج ١٨ ، ص ١٠٧ .
- ٥٩ - المصدر نفسه ، ج ٥ ، ص ٢٥٩ .
- ٦٠ - المصدر نفسه ، ج ٥ ، ص ٢٥٩ .
- ٦١ - سورة البقرة آية ١٨٨ .
- ٦٢ - المصدر نفسه ، ج ٢ ، ص ٢٤٠ ، وقد لمح إلى شيء من هذا في ج ١ ، ص ٣٣٤ .
- ٦٣ - سورة الرعد آية ٤١ .
- ٦٤ - المصدر نفسه ، ج ٩ ، ص ٣٣٤ .
- ٦٥ - المصدر نفسه ، ج ٦ ، ص ٤ .
- ٦٦ - سورة الشعراء آية ١٣٠ .
- ٦٧ - المصدر نفسه ، ج ١٣ ، ص ١٢٤-١٢٥ .
- ٦٨ - سورة البقرة آية : ٣٢ .
- ٦٩ - المصدر نفسه ، ج ١ ، ص ٢٨٦ .
- ٧٠ - سورة البقرة آية : ٦٨ .
- ٧١ - المصدر نفسه ، ج ٢ ، ص ١٩ .
- ٧٢ - المصدر نفسه ، ص ٢٢ .
- ٧٣ - المصدر نفسه ، ص ٢٢ .
- ٧٤ - سورة آل عمران آية ١٨٥ .
- ٧٥ - المصدر نفسه ، ج ٤ ، ص ٤٠٠ .
- ٧٦ - المصدر نفسه ، ج ٧ ، ص ٣ .
- ٧٧ - المصدر نفسه ، ج ٢ ، ص ٩ .
- ٧٨ - انظر : عدنان زرزور ، منهجية التعامل مع علوم الشريعة في ضوء التحديات المعاصرة « بحث مخطوط ألقى في مؤتمر علوم الشريعة في الجامعات ، في صيف ١٩٩٤ ، في عمان والذي نظمته المعهد العالمي للفكر الإسلامي بالتعاون مع بعض الجامعات الأردنية » ، ص ١٣ .
- ٧٩ - سورة النور آية : ٣٠ .
- ٨٠ - الجامع لأحكام القرآن ، ١٢ ، ص ٢٢٤ .
- ٨١ - سورة النور آية : ٦٠ .

- ٨٢ - المصدر نفسه ، ج ١٢ ، ص ٣١١ .
- ٨٣ - المصدر نفسه ج ١٣ ، ص ١٧ .
- ٨٤ - سورة التكاثر آية : ٢ .
- ٨٥ - المصدر نفسه ، ج ٢٠ ، ص ١٧٠ - ١٧١ ، ٢ .
- ٨٦ - سورة الزخرف آية : ١٣ ، ٣ .
- ٨٧ - المصدر نفسه ، ج ١٦ ، ص ٦٨ ، ٤ .
- ٨٨ - سورة البقرة آية : ٢٤٩ ، ٥ .
- ٨٩ - المصدر نفسه ج ٣ ، ص ٢٥٤ ، ٦ .
- ٩٠ - سورة النور آية : ١٨٥ .
- ٩١ - المصدر نفسه ، ج ١٢ ، ص ٢٣٠٣ .
- ٩٢ - المصدر نفسه ، ج ١٣ ، ص ١٤ .
- ٩٣ - المصدر نفسه ، ج ١٣ ، ص ١٠٢ - ١١٠٣ .
- ٩٤ - سورة فاطر آية : ٣٢ .
- ٩٥ - المصدر نفسه ، ج ١٤ ، ص ٣٥١ .
- ٩٦ - المقرئ ، نفع الطبيب ، مصدر سابق ، ج ٢ ، ص ٢١٠ .
- ٩٧ - الجامع لأحكام القرآن ، ١٧ ، ص ٢٦٤ .
- ٩٨ - سورة الحديد آية : ٢٧ .
- ٩٩ - المصدر نفسه ، ج ١٩ ، ص ٤٥ ، انظر أحكام القرآن لابن العربي ، ج ٤ ، ص ١٨٨٠ .
- ١٠٠ - سورة الكهف آية : ١٠ .
- ١٠١ - أنظر المصدر نفسه ، ج ١٠ ، ص ٣٦٠ - ٣٦٢ .
- ١٠٢ - انظر أبو عبد الله محمد بن أحمد القرطبي ، التذكرة في أحوال الموتى وأمور الآخرة (١٩٨٥) ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ص ٦١٣ ، ٦٢٩ ، ٦٥٤ - ٦٥٧ .
- ١٠٣ - المصدر السابق نفسه ، ص ٦٣٠ .
- ١٠٤ - المصدر نفسه ، ص ٦٣٦ .
- ١٠٥ - المصدر نفسه ، ٦٧٨ - ٦٧٩ ، ٧١٢ ، ٧١٣ ، ٧٢١ ، ٧٢٢ .
- ١٠٦ - المصدر نفسه ، ص ٧٢٨ .

- ١٠٧ - المصدر نفسه ، ص ٧٢٩ .
- ١٠٨ - المصدر نفسه ، ص ٧٣٩ - ٧٤٠ .
- ١٠٩ - المصدر نفسه ، ص ٧٠٣ .
- ١١٠ - المصدر نفسه ، ص ٧١٠ .
- ١١١ - المصدر نفسه ، ص ٧١٦ .
- ١١٢ - المصدر نفسه ، ص ٧١٦ .
- ١١٣ - المصدر نفسه ، ص ٧٢٤ .
- ١١٤ - محمد رشيد رضا ، تفسير القرآن الحكيم الشهير بتفسير المنار (١٣٧٣) ، دار المنار ، مصر ، ج ٤ ص ٥٠ .
- ١١٥ - الجامع لأحكام القرآن . ج ١٥ ، ص ٢١٠ .
- ١١٦ - ابن كثير ، البداية والنهاية ، مرجع سابق ، ج ١٣ ، ص ٢٣٣ ، ٢٥٨ .
- ١١٧ - المصدر السابق نفسه ، ج ١٣ ، ص ١٥٨ .
- ١١٨ - صلاح عبد الفتاح الخالدي ، مفاتيح التعامل مع القرآن (١٩٨٥) ، مكتبة المنار ، الأردن ص ١٠٦ .

مصادر البحث ومراجعة

- ١ - الأصحى ، مالك بن أنس ، الموطأ ، (١٩٩٠) ، دار النقاش ، بيروت .
- ٢ - الألباني ، محمد نصر الدين ، صحيح سنن أبي داود (١٩٨٩) مكتبة التريية العربى لدول الخليج ، الرياض .
- ٣ - ابن تيمية ، أحمد بن عبد السلام ، مقدمة فى أصول التفسير ، تحقيق عدنان زرزور بدون تاريخ ، دار القرآن الكريم ، الكويت .
- ٤ - الحاكم أبو عبد الله بن البيع النيسابورى ، المستدرک على الصحيحين ، (بدون تاريخ) ، دار المعرفة ، بيروت .
- ٥ - الحجى عبد الرحمن على ، التاريخ الأندلسى (١٩٨٣) دار الاعتصام ، القاهرة .
- ٦ - الخالدى ، صلاح عبد الفتاح ، مفاتيح للتعامل مع القرآن (١٩٨٥) مكتبة المنار الأردن .
- ٧ - الذهبى ، محمد حسين ، التفسير والمفسرون (١٩٧٦) ، دار الكتب الحديثة ، القاهرة ، دار الكتب الحديثة ، القاهرة .
- ٨ - رضا ، محمد رشيد ، تفسير القرآن الحكيم الشهير بتفسير المنار (١٣٧٣ هـ) ، دار المنار ، مصر .
- ٩ - زرزور ، عدنان ، منهجية التعامل جمع كتب التراث فى ضوء التحديات المعاصرة (بحث مخطوط ألقى فى مؤتمر علوم الشريعة فى الجامعات ، الذى نظمه المعهد العالمى للفكر الإسلامى بالتعاون مع بعض الجامعات الأردنية فى صيف ١٩٩٤ فى عمان) .
- ١٠ - الطبرى ، أبو جعفر محمد بن جرير ، جامع البيان عن تأويل آى القرآن ، تحقيق وتعليق محمود شاكر ، مراجعة أحمد شاكر (١٣٧٤ هـ) ، دار المعارف ، مصر ، ونسخة آخر (١٩٨٠) دار المعرفة ، بيروت .
- ١١ - ابن العربى ، أبو بكر محمد بن عبد الله ، أحكام القرآن ، تحقيق على محمد البجاوى (بدون تاريخ) ، دار المعرفة ، بيروت .

- ١٢ - الفريابي ، أبو بكر جعفر بن محمد ، فضائل القرآن تحقيق يوسف عثمان جبريل (١٩٨٩) ، مكتبة الرشد ، الرياض .
- ١٣ - القرطبي أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري ، التذكرة في أحوال الموتى وأمور الآخرة (١٩٨٠) ، دار الكتب العلمية ، بيروت .
- ١٤ - القرطبي ، أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري ، الجامع لأحكام القرآن (١٩٦٧) ، دار الكتاب العربي ، القاهرة .
- ١٥ - ابن كثير أبو الفداء ، إسماعيل بن كثير ، البداية والنهاية ، تحقيق خمسة من الأساتذة (١٩٨٥) دار الكتب العلمية ، بيروت .
- ١٦ - الحنبلي القاضي أبو اليمين ، الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل (١٩٧٣) مكتبة المحتسب ، عمان .
- ١٧ - المقرئ ، أحمد بن محمد ، نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب ، تحقيق إحسان عباس (١٩٦٨) ، دار صادر ، بيروت .
- ١٨ - النسائي أحمد بن شعيب ، فضائل القرآن ، تحقيق فاروق حمادة (١٩٩٢) دار إحياء العلوم ، الدار البيضاء .